

وضعية المرأة في إيران بعد الثورة الإسلامية من خلال الكتاب السير ذاتي " أن تقرأ لوليتا في طهران " للكاتبة آذر نفيسي.

د/ نسيمه بن عباس

جامعة خنشلة (الجزائر)

benabbas_8@hotmail.com

مقدمة:

آذر نفيسي أستاذة أدب انجليزي إيرانية الأصل والنشأة تعيش الآن في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قضت ثمانية عشر عاما تحت حكم الجمهورية الإسلامية في إيران. كتبت كتابها السير ذاتي " أن تقرأ لوليتا في طهران " لتؤرخ لمرحلة هامة وحاسمة في حياتها و حياة طالباتها لذا فالكتاب أقرب إلى المذكرات منه إلى السيرة الذاتية على اعتبار أن المذكرات تعني انتقاء فترة معينة ومحاولة قراءتها وتحليلها في علاقتها بالسياق السياسي والاجتماعي والثقافي وبارتباطها بالتاريخ والذي كانت الكاتبة شاهدة عليه أو فاعلة فيه في أحيان قليلة.

إن الأسباب التي دفعت بآذر نفيسي إلى تدوين هذه المذكرات متعددة ومنتشرة في ثنايا الكتاب والذي تتجاوز صفحاته الخمسمئة (500)- فهي أرادت أن تجمع شتات دفاترها العديدة التي كتبتها واحتفظت بها طوال الفترة التي عاشتها داخل إيران وأيضا تلبية لطلبات محيطها من أقارب وأصدقاء الذين ما فتؤوا يحثونها على ترك أثر مكتوب يحفظ كل ما شاهده وخبرته وعانته وعاناه طلبتها أثناء الثورة الإسلامية وأثناء الحرب مع العراق فالكتاب يبدأ تقليديا بالأسباب التي أدت إلى الرجوع إلى حياة ماضية ثم ادماج عناصر متعددة:

-مقاطع يتم فيها رسم صورة مقربة وتوضيحية عن طالباتها (آذين، نسرين، مانا ، مشهيد، ياسي، ميترا، و ساناز) علما أن الكاتبة وضعت تنبيها في بداية الكتاب يشير إلى أنها غيرت أسماء طالباتها وبعضها من أشخاص المذكورين في الكتاب حفاظا على أسرارهم وخصوصياتهم ومن أجل حمايتهم من أي تطفل سواء

من أعين الناس أو أعين الرقباء وارتأت أيضا إلى تغيير بعض التفاصيل الخاصة والحميمية حتى تبقى أسرارهم في أمان⁽¹⁾ كما تقول.

- ضم الكتاب مقاطع حوارية وهو أمر لابد منه للإطلاع على وجهات نظر مختلفة آتية من مشارب أيولوجية عديدة (علمانية، إسلامية، ماركسية، ملكية، محايدة) علما أن داخل كل توجه أطراف معتدلة وأخرى متشددة.

- ولا يمكن تصور كتاب يعتمد بالأساس على الذاكرة وعلى حكاية الوقائع كما حدثت مثلما أكدت عليه الكاتبة في بداية مؤلفها- من دون أن يتم اللجوء إلى مقاطع استبطانية عن احساسات ومشاعر وانطباعات وتأملات حول الثمانية عشر عاما الأولى من عمر الثورة الإيرانية و من آثارها على الصعيد الخاص والعام.

وختمت الكاتبة هذه المذكرات بخاتمة معروفة وتقليدية في هذا النوع من الكتابات حيث يحلو لأصحابها اعطاء سلسلة من الأخبار عن مآل كل طالبة عن حكمها العام عما صارت عليه ايران عن آمالها وخيبتها وتطلعاتها.

تبدأ خصوصية الكتاب من عنوانه المستفز

1- دلالة العنوان:

فالعنوان مشكل من جملة توكيدية فالإشارة الأولى على الفعل قرأ الدال على المطالعة والمداولة والاسم لوليتا إحالة على اسم علم غربي مشهور جدا في الأدبيات الكلاسيكية إذ لوليتا تعني أول ما تعنيه الطفلة المراهقة الطائشة وأيضا اللعوب وحملت عدة روايات هذا الاسم لكن أشهرها على الإطلاق رواية "لوليتا" للكاتب الروسي فلاديمير نابوكوف أما المكان فهو طهران عاصمة الثورة الإيرانية وقلب الحدث السياسي والاجتماعي ومركز المرشد الديني فهي المدينة المحفوظة وقلب الحكم في ايران فأن تجمع بين اسم فضائحي كاسم لوليتا ومدينة محافظة أصبحت في المخيال الجمعي رمزا للقمع والعنف السياسي والديني هو تأليف وجمع مستفز يبعث قارئ هذا العنوان على الإقبال على شراء الكتاب وقراءته تلبية لرغبة الفضول والاندھاش.

تم بناء الكتاب على أربعة فصول: الفصل الأول يحيل مباشرة على رواية نابوكوف وعنوانه "لوليتا". الفصل الثاني عنوانه "غاتسي" وهي أشهر رواية في الأدب الأمريكي على الإطلاق لصاحبها سكوت فيتزجيرالد وعنوان العمل الأصلي الكامل هو "غاتسي العظيم" يوازي هذا العمل في الأدب الأمريكي تماما

(1) - آذر نفيسي: أن تقرأ لوليتا في طهران سيرة في كتاب تر: ريم قيس 2 كبة منشورات الجمل ط1 2011

ما يمكن أن يوازيه " البؤساء " لفكتور هوغو في الأدب الفرنسي أو " دون كيشوت " لسرفانتيس في الأدب الإسباني أو مسرح شكسبير عند البريطانيين.

أما الفصلين الأخيرين فحملا اسمائهما كاتين هما هنري جيمس وجين أوستن.

والقارئ لمجمل الكتاب يجد تفاوتاً في الأحداث والأسلوب وكيفية طرح القضايا المتعلقة بالنساء والشباب. فالفصلين الأولين حملاً شغفاً وقوةً وحيويةً عكست قوةً وحيويةً وعنفت المتخيل عند كل من نابوكوف وفيتزجيرالد في حين أن الفصلين الأخيرين كانا باردين خاصة الثالث منهما ربما مرده إلى أن كتابات هنري جيمس نفسها كانت غامضة على الرغم من انتمائه إلى الأدب الواقعي أما في حالة جين أوستن فإن اقحام آذر نفيسي لها جاء من باب أنها تمثل في الأدب الإنجليزي والعالمي عموماً نموذج الكاتبة التي عرفت كيف تصور الحالة الاجتماعية والنفسية للنساء في وقتها أحسن تصوير لعل آذر نفيسي قد رغبت بأن تلعب الدور نفسه في الأدب الإيراني.

الخيوط الرابط بين كل هذه الفصول هو القول والتأكيد على أن الأدب وبخاصة الرواية الحديثة هي المكان الأفضل والأحسن لتعلم الديمقراطية وقبول الرأي الآخر وتقبل الناس كما هم من دون إقصاء وفي الحقيقة فإن الكتاب برومته إدانة للاقصاء والتهميش المتعمدين الذي مارسته الثورة الإيرانية اتجاه النصف الآخر من المجتمع أي النساء.

ومن جهة ثانية تحاول آذر نفيسي تقديم نماذج بشرية وإن كانت خيالية من مختلف الذهنيات والطبائع التي يمكن أن نقابلها على المستوى المعيشي والواقعي، وتجدر نظيراً لها على المستوى الروائي، والشخصيات التي تقدم قراءة لها تحمل في طياتها بذور الشر والاستبداد وتحاول قهر الآخرين إنطلاقاً من موقعها الاجتماعي أو الاقتصادي ومكانتها في أنظمة شمولية متخيلة وكابوسية وفي المقابل نسمع ونرى ونشاهد تصرفات الضحية أمام لا معقولة وعشوية ومأساوية الحياة التي تعيش أو بالأحرى التي فرضت عليها، وكيف تحاول أن تقاوم وأن لا تستسلم لسادية وتسلب القوى الشريرة.

إن مناقشة الأعمال الروائية تتم بطرق مختلفة وفي مكانين رئيسيين: بيت الكاتبة وأقسام الجامعة.

إذ قبل قرار الكاتبة بالذهاب والعيش بأمريكا عام 1997- البلد الذي حصلت فيها درجة الماجستير بداية السبعينيات- تخبرنا بأنها مكثت ما يقارب السنتين في بيتها مما ترك لها متسعاً من الوقت لإنشاء صف خاص بها ضم طالباتها الأجنبي واللائي تمتعن بحاسبة وذائقة أدبية جعلتهن أهلاً لأن يقصدن بيتها كل خميس فيما يشبه الندوة⁽²⁾ حيث يناقشن رواية معينة ويتبادلن وجهات النظر حول وضعيتهن كنساء

(2)- آذر نفيسي: أن تقرأ لوليتا ص: 11

متقنات في مجتمع ما بعد الثورة الإسلامية. وفي الحقيقة فإن المناقشات كانت بمثابة جلسات العلاج النفسي حيث المريض يفضفض لطبيب المعالج.

أول عمل درسته الطالبات مع الأستاذة كان " ألف ليلة وليلة" وكان السؤال الأهم الذي طرحته المؤلفة هو " كيف يمكن لهذه الأعمال الخيالية العظيمة أن تساعدنا وتبهر طريقنا كوننا نساء سقطن في شرك من الظروف العصبية؟ لم نكن نبحث عن خطة منهجية أو عن وسيلة سهلة لإيجاد حلول، بقدر ما كنا نتمنى فعلاً أن نجد العلاقة بين الفضاءات المفتوحة التي تمنحها الروايات وبين المساحات المغلقة التي تضيق بنا، أتذكر أنني قرأت لبناتي عبارة " نابوكوف": " لقد ولد القراء أحراراً ولابد لهم أن يقولوا كذلك" (3) .

لذا فعمل نابوكوف الأشهر "لوليتا" يجد له وقع وتجارب ولكن ليس للأسباب التي عرف بها وبالمختصر تحكي الرواية "عن رجل أراد أن يمتلك طفلة في الثانية عشر من عمرها وأن يسيطر على حياتها... وأبقى الفتاة لديه عامين كاملين، جاعلاً منها عشيقاً سبية، فهل يحرك أمر "لوليتا"؟ هل تتساءل لماذا؟.. لماذا "لوليتا" في طهران؟ أو.. ماهي علاقة "لوليتا" بطهران؟(4) تنفي نفسي كل علاقة بين "آية الله الخميني" وبين البطل المستبد والمريض نفسياً "هومبرت" كما تنفي أن تكون هي وطالبتها نسخة عن "لوليتا" فوجه المشابهة يقع في جانب آخر من العمل إذ ما تحكيه الرواية في العمق هو سيطرة إنسان بالغ وذكر على فتاة صغيرة وضعيفة وامتلاكه التام لها ابتداءً من إعادة تسميتها فاسمها الحقيقي دولورس والذي يعني بالاسبانية "ألم"، يأخذ "هومبرت" من لوليتا حياتها وتاريخها " الحقيقي ليضع مكانه التاريخ الذي يريد" على الرغم من امتلاك الفتاة تاريخها الخاص والمأساوي وتضيف " وبطريقة أو بأخرى نجد بأن ماضي إيران الحقيقي قد أصبح أمراً ثانوياً لأولئك الذين استحوذوا عليه، تماماً مثلما أصبح ماضي "لوليتا" الحقيقي ثانوياً بالنسبة لـ "هومبرت". (5) "

كانت النقاشات الأدبية والنقدية حول الروايات فرصة لاستطلاع القدرات التحليلية للطالبات إذ لطالما تمت تربيتهن على فكرة أنهن قد خلقن لتأدية مهام أخرى أي مهام الزواج والخضوع دوماً للشكل التقليدي والأبوي للمجتمع الإيراني.

وفكرة الحديث تقود بالضرورة إلى فكرة التعبير عن الذات وخلق لغة خاصة بهن، فلا أحد يسمح لهن بقولن ذواتهن كما يبدو ذلك واضحاً في عجز الطالبات عن الإجابة عن سؤال الأستاذة عن كيفية وصف أنفسهن وبذلك تنتمي الإيرانيات كغيرهن من نساء العالم الثالث إلى فئة الخانعات بتعبير غاباتي سيغافاك

(3) - أذر نفيسي: أن تقرأ لوليتا ص:38.

(4) - أذر نفيسي: أن تقرأ لوليتا ص:63.

(5) - المرجع السابق ص:66.

وعدم القدرة على صياغة تعابير أو الافصاح عن الأذى الذي تحسه هؤلاء النسوة مرده ليس قصور اللغة لكن مرده أنهم لم يتعودن على الكلام بقوة والتفكير بصوت عال، لكن سنرى فيما بعد أن طالبات نفسي قادرات على الدفاع عن أنفسهن والتعبير عن رغباتهن بالحديث بطريقة غير مباشرة عن بطلات الروايات، وهذا في سياق محاكمة كبيرة عرفها فصل الأستاذة نفسي عندما احتدم النقاش بينها وبين أحد طلبتها المتشددتين الذين كانوا يرون في الأدب الأمريكي مجرد دعاية للحياة المتفسخة وللزنى، وكل ضروب الفساد والتي على الثورة الإيرانية الإسلامية مكافحتها والانتصار عليها.

الثورة - غاتسي العظيم - أو الحلم الذي تحول إلى كابوس:

خصصت نفسي الفصل الثاني من كتابها للحديث عن عدة أمور لكن الخيط الناظم لهذا الفصل هو الحديث عن بدايات الثورة الإسلامية وتزامن هذا مع العام الأول لها للتدريس في جامعة طهران بقسم اللغة الانجليزية، لقد كان الأمر بالنسبة لها مدعاة للمفخرة فالرجوع إلى بلدها الأم بعد أن قضت سبعة عشر عاما وهي تدرس ما بين سويسرا انكلترا وأمريكا، لذا فإن المشاركة في تعليم الأجيال الصاعدة في بلد شاب كان يعد بالكثير، لكن القارئ لهذا الفصل سرعان ما ينتابه إحساسات ومشاعر متضاربة إزاء الكاتبة/ الساردة مرده أنها وأن كانت إيرانية المولد والمنشأ فإن ثقافتها الغربية بامتياز جعلتها تبدو كحالة الرحالة الأجانب الذين يزورون بلدانا غريبة ويحكون عن عادات وتقاليدها يشاهدونها لأول مرة .

فأذر نفسي عندما كتبت هذه السيرة أو المذكرات توجهت بها -على ما يبدو- إلى جمهور أنغلو فوني تشاطره الخلفية الثقافية نفسها وتعطي في بعض الأحيان الاحساس بأنها لا تعرف الكثير عن إحدى المكونات الأساسية للهوية الإيرانية ونقصه به الإسلام، فمثلا تحكي عن زواجها الأول الفاشل و الذي لم يدم سوى أشهر قلائل فطلبت الطلاق وقد ساندتها في هذا والدها وكتبت تقول أن الحق الوحيد الذي منحه الاسلام للمرأة هو حق النفقة، غافلة عن كل المكتسبات والحقوق الأخرى التي نالتها المرأة بفضل الإسلام.

فما هو الاستنتاج الذي سيخرج منه القارئ الأجنبي لكتابها؟ والدهشة أصابت زميلا لها عندما أخبرها بأن المصافحة بين الرجل والمرأة في الإسلام مكروهة الشيء الذي كانت تجهله فخاطبها الزميل مستغبرا: "أحقا لم تعلمي بذلك؟"⁽⁶⁾

أما شرب الخمر وأكل شرائح مصنوعة من لحم الخنزير فيبدو لها أمرا طبيعيا.

(6) - أذر نفسي: أن تقرأ لوليتا في طهران: ص: 167.

كانت الثورة في بداياتها والبلاد كلها تعمل تحت وقع الاضرابات والتجمعات التي شارك فيها الجميع؛ ماركسيون وعلمانيون ووطنيون وإسلاميون أما هي فكتبت تقول "إنه لمن دواعي دهشتي الآن وأنا أستعيد تفاصيل -تلك السنوات، أن أكتشف كم كنت غاية في التركيز في عملي فقد كنت حريصة قلقة على استقبال صفحي لي، تماما مثل قلقي بشأن الاضطرابات السياسية"⁽⁷⁾.

عندما قررت الأستاذة نفيسي تدريس رواية "غاتسبي" كان المشهد غريبا، إذ كانت الجامعة تغلي والطلبة تمور بهم الحماسة الثورية ولم تكن تعي أن الرواية التي قدمتها للطلبة تحمل قيما معاكسة تماما لشعاراتهم ثم أضافت تقول "وللسخرية، فإنه بعد مضي مدة من الزمن، راحت قيم رواية "غاتسبي" هي التي تسود الواقع وتنتصر على سواها، ولكننا في ذلك الوقت كما نكن قد وعينا بعد إلى أي مدى كنا نخون أحلامنا"⁽⁸⁾.

تحكي رواية "غاتسبي" عن شاب يقع في غرام امرأة جميلة وغنية تخونه، الثيمة الأساسية للرواية هي الحلم الأمريكي وأضافت تقول "فحن في الدول العريقة لدينا ماضينا، ولذا فنحن مهووسون بالماضي والحنين إلى الماضي، أما الأمريكيون، فليس لديهم ماض وإنما حلم، ولذا فهم مفعمون بالحنين إلى وعود المستقبل"⁽⁹⁾.

إلا أن الحلم الذي تحقق في إيران كان غريبا بعض الشيء أي: الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ما أثار غضب نفيسي هو تحويل الدين إلى وسيلة للقهر والاستعباد وماترفضه هو هذا المزج بين الدين والسياسة فالأمر بالنسبة لها مرفوض تماما، لأن الدين يدخل في دائرة القناعات الشخصية بينما السياسة هي فن إدارة الحياة العامة وتنظيمها بحيث يجد الجميع بإختلاف قناعاته وميولاته مكانه، في إحدى حواراتها مع السيد "بحري" وهو طالب عندها ورئيس اتحاد الطلبة المسلمين اشتد الحوار بينهما عن علاقة الإسلام بالسياسة كتبت تقول "كان يحاول بشكل حذر أن يجعلني أتفهم ما الذي يعنيه الإسلام السياسي، وكنت أصدده، فقد كان ذلك تحديدا، أي الإسلام بصفته كيانا سياسيا هو ما أرفضه تماما، حدثته عن جدتي التي لم أعرف في حياتي مسلمة في مثل ورعها وتقواها،" كانت أكثر ورعا حتى منك ياسيد "بحري" ومع هذا كانت تنأى بنفسها عن السياسة "وأخبرته أنها كانت مستاءة جدا من فكرة أن حجابها، الذي هو بمثابة رمز للعلاقة المقدسة بينها وبين الله، كان قد أصبح في ذلك الوقت أداة بيد السلطة، جاعلين من

(7) - المرجع نفسه ص: 159..

(8) - المرجع السابق ص: 184.

(9) - المرجع نفسه ص: 186.

النسوة اللواتي ارتدينه رموزا وشعارات سياسية، فإلى أي اتجاه تنتمي بولائك ياسيد "بحري"؟ إلى الاسلام؟ أم إلى الدولة"⁽¹⁰⁾

إن ما تشير إليه نفيسي هو أن تحويل الدين إلى ايديولوجيا بيد مجموعة معينة هو باختصار تقزيم واستيلاء واستحواذ على ماكان مقدسا وتصويره إلى لعبة دنيوية قد تؤدي إلى تشويه بل وتغريبه والمغامرة بصرف الناس عنه كما باقي الايديولوجيات التي كانت تنادي بسعادة البشر ثم حولت ما نادى به إلى كابوس فظيع، نظام شمولي يتحكم بأنفاس والبشر وحتى إيماءاتهم وحركاتهم الأكثر العفوية والتي صارت بما تكال التهم وتقام المحاكمات والاتهامات الطويلة والكافكاية، هكذا تحول رموز كانت مقدسة وقت الشاه إلى طقوس إجبارية وتحنيطية تقضي على حرية الاختيار وتحتزل نصف المجتمع إلى آخر عدو داخلي يجب القضاء عليه.

إن الحجاب الذي أشارت إليه نفيسي كان له دلالة مختلفة عن تلك التي صار عليها بعد الثورة ف "كما هو معروف أن النساء الايرانيات من الطبقة الوسطى قمن بتغطية أنفسهن بالحجاب خلال الثورة 1979 للدلالة على التضامن مع الأخوات المحجبات من الطبقة العاملة، في حين أنه في ايران المعاصرة ، فإن القوانين الاسلامية الالزامية تفرض ارتداء الحجاب على جميع النساء الايرانيات، وفي حين أنه في كلا هذين المثالين ربما يتم تقديم أسباب متماثلة للحجاب (معارضة الشاه والاستعمار الثقافي الغربي في الحالة الأولى، والالتزام بالإسلام في الحالة الثانية) فإن المعاني الواقعية المرتبطة بارتداء المرأة الايرانية الحجاب، تختلف بوضوح في السياقين التاريخيين، في الحالة الأولى، فإن ارتداء الحجاب هو مؤشر معارضة ورمز ثوري من جانب النساء الإيرانيات من الطبقة المتوسطة، وفي الحالة الثانية، هو إلزام عربي قسري"⁽¹¹⁾

لم تستطع نفيسي أن تقهر إحساس الخوف المتعاضم الذي بدأ ينتشر فإن حاولت أن تنأى بنفسها عن الإضطرابات التي كانت تعصف بالبلاد وأن تركز على عملها فإن قسمها لن يستطيع الإفلات من ضغوط الواقع والسياسة، خاصة مع ثلة من الطلبة الثوريين الإسلاميين الذين تزعمهم السيد "نيازي" والذي بسبب آراءه المتمتة والسطحية عن الأدب سيدفع بالأستاذة إلى اقتراح عقد محاكمة لكتاب "غاتسي" وكما كان متوقعا تمت قراءة العمل في ضوء معطيات السياسة والصورة المقيتة التي يحملها جزء من المجتمع الإيراني لأمریکا لم يفهم السيد "نيازي" أن جوهر أي عمل روائي هو الديمقراطية أي تعدد الأصوات ووجهات النظر وأن الروائي حتى وإن تحدث عن الشخصيات ترتكب مجموعة من الأخطاء المدانة أخلاقيا

(10) - آذر نفيسي: ص 176

(11) - النظرية النسوية: مقتطفات مختارة تحرير: ويندي كيه كولمار فرانسيس بارتكوفيسكي ترجمة: عماد ابراهيم الأهلية للنشر والتوزيع الأردن ط2010، 1: 290-291.

فليس معنى هذا أنه منحل أو أنه يؤيد ذلك " الانحلال "، ليست المجتمعات كلها ملائكية أو شيطانية إن إدانة بعض التصرفات تتم في العمل الأدبي على نحو متوار فليس التنديد المباشر والصارخ هو ما سنعثر عليه فتلك مهمة المصلحين الاجتماعيين أو حراس الأخلاق كما هو الحال في المجتمعات الشمولية، فعندما يصور سكوت فيتز جيرالد شخصيات طائشة وغير مبالية بحياة الآخرين فإنه يضع إصبعه تماماً على هذه الخصلة السيئة أي افتقار الشخصية لسمة التعاطف وهذا أمر غير محتمل، لأن عدم التعاطف يؤدي إلى القسوة واعتبار الغير غير جديرين بالحياة، أما الخيال فهو "المعادل الموضوعي للتعاطف، فنحن ليس باستطاعتنا أن نجرب كل ما يمر به الآخرون، ومع هذا فإن بإمكاننا أن نفهم حتى أكثر الشخصيات فظاعة في الأعمال الأدبية... ونحن نحس بقيمة التعاطف في جوهر رواية "غاتسي"، مثل كثير من الروايات العظيمة، فالخطيئة أن يغمض المرء عينيه أو يتعمى عن مشاكل وآلام الآخرين، فعدم النظر إليها يعني إنكار وجودها⁽¹²⁾»

حاولت الأستاذة نفيسي أن تدفع بطلبتها المتشدددين إلى تبني فضيلة التعاطف إلى معرفة دوافع الناس واحتياجاتهم إلى أن الظاهر لا يخبر عن الباطن، فضحايا الثورة الإسلامية كانوا بالآلاف من كل التوجهات ومن كل الأعمار والفئات من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين رجال ونساء الجميع دفع غالبا ثمن الحلم/ الكابوس الخميني.

لقد أراد "غاتسي" أن يحقق حلمه بأن يستعيد الماضي، فاكشف في النهاية بأن الماضي قد مات، وبأن الحاضر زائف، ولم يعد ثمة مستقبل، أليس هذا تشبيه بثورتنا التي جاءت باسم ماضينا الجمعي المتراكم، وحطمت حياتنا باسم الحلم؟⁽¹³⁾.

شكلت لجان لتطهير الجامعات أو ما عرف "بالثورة الثقافية" وفي الحقيقة كانت هذه الثورة كارثة على التعليم والتعليم العالي في إيران إذ فصلت من الجامعة أهم كوادرها وعناصرها الحية وأغلقت الجامعات مدة سنتين.

لقد خيبت الثورة الإسلامية آمال الكثيرين ونجحت في تدمير واقع الإيرانيين وحلمهم كما كتبت تقول بل ووصل الأمر إلى حرق النفس احتجاجا على ذلك كما وصفت عملية الحرق هذه التي قام بها أحد الطلبة في الحرم الجامعي صارخا " لقد كذبوا علينا، انظروا خاننا الخونة انظروا إلى ما فعلوه بنا" (ص 421).

وضعية النساء بعد الثورة:

(12) - آذار نفيسي: أن تقرأ لوايتا في طهران: ص 223.

(13) - آذار نفيسي: أن تقرأ لوليتا ص: 243.

عندما نقرأ كتاب آذر نفيسي نتيين أنها سياسيا تنتمي إلى عائلة كانت غير متفقة مع نظام الشاه وفي الوقت نفسه لم تكن تلك العائلة تتوقع أن الثورة التي من المفترض أن تجلب المزيد من الحريات قد قامت بالتقليص منها (ص431).

واسترسلت نفيسي في ذكر المآثر السيئة لهذه الثورة فقد تم:

(1) إلغاء قانون الأسرة والذي كان يضمن حقوق المرأة في البيت والعمل.

(2) تخفيض سن الزواج إلى تسع سنوات.

قتل كل من له علاقة بنظام الشاه مثلما حدث لوزارة التربية بتهمة ارتكاب المعاصي والبغاء في حين أن وزيرة شؤون المرأة كانت في الخارج وقت اندلاع الثورة مما جنبها عقوبة الإعدام.

لم تستطع نفيسي أن تفهم كيف أن بعض النسوة قد انضوين تحت لواء الحركة النسوية الإسلامية فالأمر بالنسبة لها ذو مبدأ متناقض فكيف يمكن التوفيق بين فكرة حقوق المرأة و العقيدة الإسلامية فهذا الجمع في نظرها يخدم الحكام الجدد إذ ادعوا "إلى أنهم تقدميون وإسلاميون في الوقت نفسه، بينما اتهمت النساء المتحضرات بشتى أنواع التهم: مثل العزينة والانحلال وعدم الولاء للثورة، كانوا بحاجة إلى وجودنا معهم بصفتنا نساء ورجالا متحضرين فنرشدنهم وندلهم على الطريق، ومع ذلك، كانوا يحرصون على إبقائنا ضمن حيز ضيق لا نحيد عنه" (ص433).

كل ما ذكرته نفيسي صحيح تاريخيا فقد سمح لي الاطلاع على بعض الدراسات التي كتبت عن الثورة الإيرانية بالمقارنة بينها، لكن انتقادات الذاكرة وهوى الانتماء قد يمنع في أحيان كثيرة رؤية وجهة النظر الأخرى.

إن نفيسي بوصفها أستاذة جامعية تشبعت بالكثير من الأدب والثقافة الغربية، ومنبئة الصلة تقريبا بالثقافة الإسلامية التي تشكل إحدى الزوايا الثلاثة للثقافة الإيرانية، جعلها هذا الإنكار أو الجفول تتطرف ولا ترى إلا التقهقر والمنع فمثلا أورد جون بيار ديغار وبرنارد هوركاد ويان ريشار في كتابهم "إيران في القرن العشرين" أرقام وإحصاءات تشير إلى أن وضعية النساء قد تحسنت على الرغم من قسوة القوانين وإجحافها فزادت نسبة النساء في الجامعات وارتفع سن الزواج، بالنسبة للفتاة قانونيا هو تسع سنوات إلا أن الآباء في غالبيتهم العظمى لا يزوجون بناتهم في مثل هذه السن، هناك فارق بين ما يمارسه الناس وما يعتقدونه وبين ما تلزمهم به القوانين، يعترف أصحاب الدراسة المذكورة أن وضعية النساء في السنوات الأولى للثورة كانت سيئة بالمقارنة مع ما عشنه وقت الشاه لقد استمرت الأزمات حتى بعد سقوط النظام

القديم لكن يجب الاعتراف بأن "تحولات عميقة مست الطبقة المتوسطة والشعبية في المدن وبخاصة النساء، فلم تقدر القوانين الإسلامية على تهميشهن" (14).

ومن جهة أخرى يؤكد فرهاد خوسخو كافار وأوليفي روا، أن نسوية جديدة ونشطة في جزء منها ناشطة تحت اللواء الإسلامي تعاود المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية فقد انبثق تيار واقعي وبراعماتي فهم أن المطالب النسوية عليها أن تتحقق داخل الإسلام لا ضد الإسلام لأن حتى أكثر الليبراليين تشددا في إيران لا يعملون ضد إبعاد الإسلام الشيعي بل محاولة تأويله وتفعيله من جديد لأنه مكون هام من مكونات الشخصية الإيرانية.

النسوية الجديدة التي ظهرت لا تنكر الإجحاف والتقهقر الذي عرفته حقوق المرأة في إيران وهي الرغم من عدم توافق أصواتها إلا أن هذه النسوية تعتبر نفسها وريثة للإسلام الحقيقي في واجهة نظام أبوي قديم عرفته كل شعوب المنطقة حتى قبل ظهور الإسلام، فנסاء هذا التيار الجديد أخذن على عاتقهن مهمة المحاججة من داخل العقيدة أي البحث عن نصوص دينية تذهب ضد ما أقره الملاي وحى لا يتم صدم المرجعيات فإن هؤلاء الناشطات يتفادين استعمال أي مصطلحات أو مفاهيم يمكن أن توحى بخلفيتها الغربية إن التغيرات التي طالت بنية المجتمع الإيراني إنعكست أيضا على ذهنيته ، فالكفاح من أجل إسترداد بعضا من الحقوق ستكون على المستوى الساسي و القانوني ، و هذا ما فهمته نساء قانونيات وبرلمانيات و صحافيات و حتى فنانات" (15).

في إحدى النقاشات طرحت شيرين عبادي- وهي أستاذة قانون معروفة في إيران و نالت جائزة نوبل عن عملها في مجال تحرير المرأة - بوضوح مدى تناقض بعض القوانين " فسن البلوغ السياسي يختلف عن سن البلوغ القانوني ، فمرة تساوي المرأة الرجل (فيما يخص الانتخاب) ، و مرة أخرى هي أقل عنه بالنصف (في الشهادة و الميراث) مع بقاءها دوما مسؤولة جنائيا ، و هي تعتبر قاصرا طوال حياتها . تستطيع أن تتزوج في سن التاسعة لكنها لن تستطيع العمل قبل سن الخامسة عشر ، لأن عمل الأطفال ممنوع: ففتاة في سن الرابعة عسر تعتبر بالغة بالنسبة للقانون المدني و الجنائي و قاصرة بالنسبة لقانون العمل . لكن الإسلام كما تقول عبادي هو دين موحد و منسجم و منطقي ، فإذا كانت هناك تناقضات فهي راجعة للقوانين و هذا ليس بسبب الإسلام ذاته و لكن بسبب الرجال الذين يريدون إدامة إمتيازاتهم البطورية باسم الإسلام" (16).

(14) Jean- pierre D igard, Bernard H oucarde, et yann R ichard : L' iran au 20 Siècle éd Fayard paris 1996 p :338.

(15) farhad khosrokhavar et olivier roy : iran comment sortir d'une révolution religieuse .seuil paris 1999 p : 209

(16) farhad khosrokhavar et olivier roy : iran comment sortir d'une révolution religieuse . p : 211-212

في ظل الثورات العربية التي إنطلقت شرارتها منذ ثلاث سنوات فإن التخوفات و الآمال تبدو متشابهة مع الحالة الإيرانية على أكثر من صعيد، إلا أن فروقا أخرى تطفو إلى السطح ، فالثورة في إيران هي أول ثورة في العالم تمت بإسم الدين ، في حين أن الثورات في البلدان العربية تمت بإسم حقوق الإنسان ، لكن ما حدث بعد ذلك أن الإنسان يفهم منه الرجل ، و المرأة تخلق لها وضعيات و قوانين خاصة ، جعلت منها الضحية الأولى لهذه الثورات ، فما تتطلب به النساء في تونس ، يختلف عن مطالب المصريات أو الليبيات أو حتى اليمنيات ، فعندما سنت قوانين الأسرة و الأحوال الشخصية في تونس عام 1959 كانت من أكثر القوانين مناصفة لحقوق المرأة في العالم العربي و لما أراد الإسلاميون معاودة مراجعة بعضا من بنودها كانت مقاومة المجتمع المدني قوية ، في حين أن وضعية النساء في مصر فهي أكثر تعقيدا ، لأن وضعية المرأة كانت بالأصل متأخرة حتى قبل وصول الإسلاميين إلى الحكم فقد ألغى الجيش " الكوتة" المخصصة للمرأة و التي كانت تضمن لها 64 مقعدا في عهد مبارك . و فيما يخص الطلاق فإن الخلع مثلا و هو حق كفله الإسلام للمرأة لم يتم العمل به إلا سنة 2000 و قد ندد به العلمانيون و الإسلاميون على السواء ، من منطلق أنه يقوض دعائم الأسرة⁽¹⁷⁾، مما يدل على أن الرجال يخافون على إمتيازاتهم حتى لو تتطلب الأمر الأخذ ببعض الدين و ترك بعضه .

خرجت النساء في مصر للإحتفال بالثامن مارس و بدل الفرح بما حققته كانت الخيبة كبيرة فلم تكن هناك أي امرأة عضو في الهيئة التي تم تعيينها لإعداد مشروع الدستور الذي لم يقدم أي ضمانات بأن حقوق المرأة المكتسبة سوف يتم تعزيزها و الحفاظ عليها ، بل و تمت إهانتهم بدعوى أن ما ترفعه من مطالب سيفشل الثورة فمن المستحب إرجاؤها إلى المستقبل، بينما يعلمنا التاريخ من خلال الثورات العديدة التي عرفها كالثورة الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية أو الجزائرية أو الكويتية أن ما يتم إرجاؤه فلن يتحقق أبدا⁽¹⁸⁾.

عندما كتبت آذر نفيسي كتابها كانت فضيلته الأساسية تكمن في تعريفنا بقيمة الأدب و الخيال في مواجهة القوى الظلامية و الرجعية التي تتسر بستار الدين للجيم و تعطيل نصف المجتمع بدعوى إصلاحه و إسماعه و درء المفسد عنه، و ما نجحت الثورة الإيرانية في فعله هو خلق أجيال من الشباب الكافرين بالعقيدة فأصبحوا يمارسون الدين عن غير إقتناع ، و للأسف بدأت بعض من مظاهر التذمر من الدين تظهر هنا و هناك في البلاد العربية، الشيء الذي يجعلنا نعاود النظر في طريقة مجادلة الآخرين ، ما لم يفهمه الإسلاميون هو أن واجبه الإرتفاع بالواقع إلى المثال لا إنزال المثال إلى الواقع.

(17) www.majalla.com/ar/2012/01/article55230797

(18) www.lemonde.fr 30/ 03/2011.